قصة لويس ده رجمون

الفصل السابع

لما سئمت نفسي من الاقامة في تلك البلاد بعد غرق التاتين وذكرت السكان عازماً ان امضي الى حيث شاءت الاقدار وترك السكان محلتهم ايضاً لانهم لا يقيمون في مكان مات فيه احد خوفاً من ارواح الموتى وساروا معنا اولاً ثم افترقنا فمضيت انا وبيبا وحدنا ومعنا الكلب ولم نأخذ معنا زاداً لكنني كنت متسلحاً بفأسي وخنجري وقوسي وسهامي وكان مع بيبا وقد طويل لقلع الجذور وسلة فيها بعض الادوات ودليلنا في تلك الحراج قرى النمل واوكار الزنابير والنحوم والقلال. وكانت بيبا تسير امامي وانا اسير وراءها وكانت الحراج مملوءة بالاثمار والجذور. وتبعنا في سيرنا مجرى نهر فكتوريا الى ان وصلنا الى ارض منطاة بنبات طويل كقصب السكر وليس هو اياه يبلغ ارتفاعه عن الارض عشر اقدام الى اثني عشرة قدماً فتركناها لان السير تعذر علينا فيها وجعلنا نتتبع آثار السكان والقناطر كيفما اتجهت ووجدنا كثيراً من الديوك الرومية وطائر الامو فكنا نصيدها ونشويها رمضاً ونجمع بيوضها ونأكلها. ومررنا بقبائل كثيرة كنا نتزل عليها اياماً ثم نغادرها. وذات يوم كنا سائرين على هذه الصورة واذا بيبا تناديني وتقول اصعد على شجرة حالاً قال ذلك واسرعت الى اقرب شجرة منها وصعدت عليها فانتفيت خطواتها غير مكذب لانني صرت اتلم بالطريقة انها لا تخطىء في احكامها وصعدت على شجرة اخرى بجانب شجرتها واصعدت الكلب معي ثم سألتها عن السبب فلم تجبني بل اشارت الى سهل منبسط امامنا فنظرت ولم ار شيئاً ولما احدقت بنظري اليه ظهر لي كأن الارض مغطاة بطبقة سوداء تموج عليها موجاً ثم انجلت عن حيوانات صغيرة متراكة بعضها بجانب بعض ولم يكن الا قليل حتى وصل هذا البحر الزاخر الينا واذا هو بحر من الجرذان جارٍ على تلك الارض جريان السيل الجارف. ثم اخبرتني ان الجرذان تهاجر من السهول الى الجبال كلما دنا فصل المطر لئلا تغرقها السيول وتأكل كل ما تجده في طريقها وهي سائرة ولو لم نصعد على الشجر لافترستنا لانها لا تبقي على احد مما تجده في طريقها ولا ينجو منها حيوان. وظلت في سيرها الى ان بلغت نهراً فقطعته سباحة ولما بانت الضفة الاخرى غابت عن نظرنا. واخبرتني ايضاً انه كثيراً ما يمضي اولاد السكان يفتشون عن الماء فتلاقيهم جيوش الجرذان وتفترسهم

وكنا حتى الآن نجد الطعام كثيرًا في طريقنا ونجد ايضًا نوعًا من المنّ يقع على الاشجار كمنّ بني اسرائيل وهو مادة بيضاء كالقطن المندوف يجمعها السكان ويأكلونها كالخبز فتغذيهم فكنا نجمعها ونأكلها مثلهم

ولقينا في طريقنا كثيرًا من الجراد وكثيرةً حتى غطّى وجه الارض وعلا عليها نصف قدم او اكثر وكان اذا طار يحجب وجه الشمس وهو اذا شوي على الرضف طعام طيب وكانت بياتهتم بطبخ الطعام على جاري عادتها وتضرم النار بحك العيدان وكنت اصيد لها القناقر والافاعي وهي تصيد الابسم وتجمع الجذور

ولما صار لنا ثلاثة اشهر ونحن نضرب في تلك الفيافي حدث حادث لا يكاد يصدَّق مع انهُ كثير الوقوع في استراليا ذلك اننا بلغنا ارضًا قفرًا لا شجر فيها وجلسنا نأكل من زادنا واذا نحن بقتيمة سوداء صعدت من وراء الافق فايرقت اسرّتنا لانا حسبناها دليلاً على قرب وقوع المطر ولما علت وبلغت سمت الراس صبَّت علينا مطرًا مدرارًا ومع المطر ما لا يحصى من السمك الصغير فامتلأت المنخفضات كلها واترعت الغدران ماء وسمكًا لكن الماء جفَّ بعد ايام قليلة وبقي السمك على الارض فمات وانتن وسدَّ منافس الفضاء بزهمته وكثيرًا ما كنت ارى السمك في القلات والبرك فلا اعرف كيف وصل اليها اما الآن فرأيتهُ بعيني ينزل من السحاب (فان الزوابع تهبُّ على البحار والبحيرات وترفع الماء والسمك منها وتلقيهما في مكان آخر)

ومررنا على قبائل كثيرة وكنا نريهم جوازنا فيرحبون بنا فنقيم عندهم اياماً وكان بعض القبائل يقابلنا بالعداء فاذا رأيتُ منهم ذلك اخذت اللعب امامهم كالمشعوذ واقلب على رأسي وادور في الهواء ويحذو الكلب حذوي فاسرُّهم بذلك واحولهم من العداوة الى الصداقة وكانوا يندهشون بنوع خاص من نباح الكلب لانهم لم يسمعوا كلبًا ينبح قبله

وما زلنا نسير في الجهة الجنوبية الشرقية ونحن نقترب من منازل السكان على قدر الطاقة لكي لا نبعد عن الماء وصارت الارض جبلية امامنا وتلّت جذورها او لم تعُد بيانا تعلم كيف نقتلها لكن الصيد كان كثيرًا فلم نشكُ حاجة الى الطعام ولا الى الماء

ورأيت يومًا حفرة عميقة قطرها نحو عشرين قدمًا وعمقها نحو تسع اقدام وفيها شيء استغربتهُ واردت ان اعرف ما هو فنزلت اليها ولم انزل الكلب معي وكان بيدي عصا كبيرة فالتفت الى ذلك الشيء واذا انا بافعى كبيرة تنساب منذُ فضربتها بالعصا على ظهرها فقتلتها واذا بافعى اخرى تنساب وراءها ولم آكد اقتلها حتى اقبلت افعى ثالثة تسعى وراءها وكنت اظن ذلك الشيء اكومة شجرة واذا هو اكومة من الافاعي اجتمعت بعضها فوق بعض للدفء

لان الهواء كان باردًا جدًّا . وجعلت الافاعي تنساب رويدًا رويدًا فاتبلها وانا لا املُّ ولا اتعب لشدَّة ما اعتراني من الانتعال حتى قتلتها كلها فعددتها واذا هي ٦٨ افعى والفضل للبرد الذي كان قد فرَّها والاَّ لاوردتني حتفي ولم تقدر قوة من قوى الارض ان تنجيني منها. وعلم الناس المجاورون ما فعلت فارتفعت منزلتي في عيونهم وذاع خبر قتلي للافاعي بين القبائل البعيدة فاتوا من كل صوب ليروها

وعثرت في اسفاري على كثير من معادن الذهب والقصدير لكنني كنت انظر اليها كأنَّها من تراب الارض لانني لم اكن استطيع حملها ولا ارى لها فائدة والتقطت مرةً بعض الحصى واذا هي حجارة ياقوت فلم احفل بها ايضًا واخبرت بيا ان الناس في بلادي يفتشون كل انواع المشاق للحصول على قليل من ذلك الذهب وتلك اليواقيت فاستغربت ذلك ولم ترَ سببًا لهُ . ووجدت مرةً شذرة كبيرة من الذهب فوضعتها على قطعة من الخشب الصلب وطرَّقتها حتى طالت ورقت وصنعت منها شيئًا كالعصابة او الاكليل ووضعتها على راس بيا وعقصت بها شعرها فظلت تفعلها على راسها سنوات كثيرة

وبلغني يومًا ان في بحيرة صغيرة سمكة هائلة ترتعد منها فرائص السكان وهم يخشون شرَّها ويودون ان امضي اليهم واخلصهم منها لانهم سمعوا بقتلي للحوت والتمساح والافاعي فمضيت اليهم انا وبيا وصنعنا قاربًا صغيرًا من العيدان والجلود وشبكة كبيرة من السيور ونزلنا في البحيرة نفتش عن هذه السمكة حتى رأيناها مقبلة نحونا واذا هي من السمك ذي المنشار فرميتُ الشبكة عليها ونزلنا من القارب وهربنا سباحة لانا رأيناها مسرعة اليهِ ثم طعنتهُ بمنشارها فخرقتهُ من جانب الى جانب وعلق المنشار بهِ فلم تستطع نزعهُ منهُ وكانت الشبكة قد التفَّت على بدنها فجعلت تخبط على غير هدًى وتحاول تغريق القارب في الماء وهو يرفع رامسها بعنفهِ الى ان اعياها التعب وكانت القبيلة كلها قد اجتمعت حول البحيرة وعلت الجلبة والضوضاء حتى سمعت آذاننا . ولما رأيت ان السمكة قد كلَّت ولم يعد يخشى شرها نزلت اليها واجهزت عليها بنامي فصفَّت على وجه الماء ورفعها السكان الى البر فقستها واذا طولها ١٤ قدمًا وطول منشارها خمس اقدام ولا ادري كيف وصلت الى تلك البحيرة الاَّ ان تكون الاعاصير قد حملتها من البحر وهي صغيرة كما تحمل غيرها من السمك والتقتها في البحيرة

ولم يكن السكان قد رأوا البحر ولا القوارب والسفن فحاولت وصفها لهم فلم يدركوا شيئًا. وقد سرُّوا بي سرورًا لا يوصف واكلوا لحم السمكة باحتفال عظيم وطلبوا مني ان اقيم عندهم واكون رئيسًا عليهم فلم ارضَ لانني كنتُ عازمًا على العودة الى خليج كمبردج حيث نزلت

اولاً لكنني رأيت في محلتهم رجمة من الحجارة الكبيرة مقامة باحكام لم ارَ مثلهُ عند سكان استراليا فخطر لي انها قد تكون من آثار احد الاوربيين الذين دخلوا تلك البلاد قبلي ورأيت على حجر من حجارتها الحرفين L. L. فسألت السكان عما اذا كانوا قد رأوا رجلاً ابيض قبلي فقال لي كهولهم نعم زارنا رجل ابيض مثلك واقام عندنا اشهرًا قليلة ومات وكانوا قد قدموا لهُ زوجة على جاري عادتهم فولدت منهُ ابنة بعد وفاتهِ فاعطوني اياها زوجة وكانها كانت تعلم ان اباها من جنسي فسرَّت بذلك وسرَّت بيبا ايضاً لانها كانت تودُّ ان يكون لي عشرون زوجة ليساعدنها في الخدمة ولكي يبقى مقامي رفيعاً في عيون قومها . اما انا فكنت قد سئمت الحياة ولم اكن اقوى على الاهتمام بغيري لكنني رضيت ان تبقى هذه الفتاة مع بيبا لتساعدها على خدمتي . وتبيَّنت ان الحرفين اللذين وجدتهما على الحجر مقطوعان من اسم لدوغ ليخبرت الرحالة البلجيكي الذي ضلَّ في تلك المجاهل . وهو يقصد اكتشافها ومعرفة ما فيها من النبات وهذه الفتاة ابنتهُ

وطالت اقامتي عند تلك البحيرة رغماً عني وولد لي وانا هناك ابن وابنة فسررت بهما وحاولت ان اربيهما على غير ما يربي السكان اولادهم فنشَّا نحيفين ضعيفين فزدت همًّا وغمًّا

وجاءتني بيبا ذات يوم وهي ترتعد خوفاً لانها رأت آثار حيوان كبير لا تعرف لها مثيلاً واخذتني بيدي وارتني تلك الآثار واذا هي آثار جمل (وكان غيلس الرحالة قد تطع تلك القفار على الجمال) فلما رأيتها عزمت ان اقتفيها فاقتفيتها مسافة طويلة ورأيت في الطريق كثيرًا من عظم اللحم الفارغة ثم رأيت نسخة كاملة من جرنال سدني المعروف بالمدينة والبلاد تاريخهُ سنة ١٨٧٥ فلقيتهُ كما تلقى الارض العطشانة وابل المطر وجعلت اتصفحهُ مرة بعد اخرى حتى استظهرتهُ ورأيت فيهِ خبرًا اطار عقلي وهو ان نوَّاب الاراضي واللوردين ابرا ان يقترعوا في مجلس النواب الالماني . ومعلوم اني لم اكن قد عرفت شيئاً عن الحرب بين فرنسا وروسيا فجعلت افكر في معنى هذه العبارة وانا اطنني في حيرة واقول في نفسي ما شأن نواب الاراضي واللوردين في مجلس النواب الالماني فطرحت الجريدة من يدي ولكنَّ معنى هذه الجملة بقي راسخاً في ذهني فعدت اليها وقرأتها مثنى وثلاث ورباع ولما لم افقه لها معنى رسخ في ذهني اني اُصبت بدخَل في عقلي فصرت ارى الاشياء على غير ما هي عليهِ وحاولت تناسي هذا الموضوع فلم استطع

ومضت الايام وانا ازيد شهرة بين القبائل المجاورة وأُقمت رئيساً على القبيلة الساكنة بجانب البحيرة فرأيت ان لا بدَّ لي من الاقامة عندها ومرض ولداي بالحمَّى وماتا كلاهما

فدفنتهما في تلك الارض وانا احسب انني دفنت فلذة كبدي ومات الكلب ايضاً فدفنته آسفاً عليه . ثم مرضت زوجتي وقضت نحبها وكان همها الوحيد وهي على فراش الموت ان تعلمني كيف اجد الماء في الطريق اذا حاولت الرجوع الى بلادي وكيف اجد الجذور والاثمار التي تؤكل . ولما اعتنقتني وودعتني الوداع الاخير قالت انها ستنتظرني في العالم التالي ثم اسلمت الروح . فشمرت كمن قطعت كل اوصاله وحبال رجائه . واصبحت وحيداً في تلك البلاد وضاقت الدنيا في وجهي فقلت للسكان انه لا بدَّ لي من مغادرتهم فرافقني نحو اربعين منهم واخذنا نضرب سبع القفار لا نلوي على شيء مدة ثمانية اشهر ولم تحدث لنا في اثناء الطريق حوادث غريبة تستحق الذكر وكنا نلقى في طريقنا كثيراً من عظم اللحم والسردين وقطع الورق ونحو ذلك من آثار الوفود الاوربيين فعلمنا اننا نسير في الطرق التي سلكوها. ورأيت ذات يوم خياماً مضروبة على نحو خمس مئة متر منا فاوقفت رجالي في مكانهم ومضيت وحدي اليها وكنت قد قصصت شعري . ولم تؤثر فيَّ رؤية هذه الخيام كثيراً لانني كنت مستعدًّا لها بما رأيته قبلاً من آثار اصحابها ولكن خامرني الخجل من نفسي لما رأيت اصحابها لابسين وانا عار وهم بيض الوجوه وانا اكاد اكون زنجيًّا وغلب عليَّ الحياء فعدت الى رجالي وقلت لهم انني رأيت البيض ولكنني لم استحسن الدخول الى مخيمهم حالاً . ثم اخترت اثنين منهم واخبرتهما انني لا اريد ان اقابل قومي عاريًا واوصيتهما ان يعطيا خلسةً ويخلعا لي قميصاً وسراويل رأيتهما منشورين قرب الخيام ففعلا واتياني بالقميص اما السراويل فكان صاحبه قد رفعه قبل وصولهما فلبست القميص ولكنني خجلت من ان اقابل هؤلاء الرجال بقميص سرقته منهم فتركتهم وقصرت ليتي واغتسلت ولبست القميص وسرت في طريقي لعلي اجد قوماً غيرهم وكنت قد عرفت ان البيض انتشروا في تلك البلاد يفتشون عن الذهب فلم يكن الاَّ قليل الاَّ رأيت خيمةً اخرى وامامها اربعة اضرموا ناراً وجلسوا حولها وكان الظلام قد خيم فصرفت رجالي ودنوت من هؤلاء الاربعة وحدي وطارحتهم السلام بالانكليزية كما يفعل عابرو الطريق وقلت لهم هل لي مكان عندكم فردوا لي التحية وقالوا اجلس معنا فجلست معهم فسألوني عمَّا اذا كنت افتش عن الذهب مثلهم فقلت مضى عليَّ زمن طويل وانا اضرب في هذه البلاد فقالوا لي اين رفاقك قلت كنت اضرب وحدي فنظر احدهم الى الآخر غير مصدقين قولي ثم قالوا هل وجدت ذهباً قلت وجدت كثيراً منه . قالوا ولماذا لم تأت بشيء منه قلت لانه كثير ولا استطيع حمله . فنظروا اليَّ كما ينظرون الى رجل مجنون لكنهم قدموا لي طعاماً واعطوني بنطلوناً وحذاء فلبست البنطلون واما الحذاء فلم استطع ان البسه

واخبروني اني اجد الماساً كثيرين مثلهم يضربون في تلك البلاد في طلب الذهب فودعتهم وانتقلت من مخيم الى مخيم الى ان وصلت الى مدينة اسمها كولغاردي فاقمت فيها اعمل كعامل بسيط واكتسب قليلاً ثم مضيت الى برث عاصمة استراليا الغربية ومنها الى ملبرن فسدني فريلندا الجديدة واخيراً بلغت مدينة لندن في شهر مارس سنة ١٨٩٨ انتهى باختصار كثير

السودان ومستقبله

من رسالة للسر وليم غارستن وكيل نظارة الاشغال العمومية في القطر المصري

﴿ السدود ﴾ السدود النباتية التي تسدّ فروع النيل نباتاتها على ثلاثة انواع نوع تبلغ جذورهُ قاع النهر وغالبهُ من البردي . ونوع لا تبلغ جذورهُ قاع النهر بل تبقى منتشرة في الماء ونوع يطفو كلهُ على وجه الماء . والسدُّ الحقيقي مؤلف من هذه الانواع الثلاثة فالاول يثبت في الوقارق حتى اذا غرز لياه وعلا عليه كثيراً انتابهُ من جذوره وجرى به الى ان يصل الى وقارق آخر او الى منعطف في النهر فيقف هناك وتصل اليه النباتات التي من النوع الثاني والثالث فتلتحم هذه الانواع الثلاثة معاً ويتكوّن من مجموعها سدٌّ متين يزيد اتساعاً باضافة نباتات جديدة اليه حتى يصير طولهُ اميالاً كثيرة وقد يسدُّ مجرى النهر كلهُ حتى يتعذّر على السفن الجري فيه ولمسافة وعمق حتى يتعذر عليه بالرجل اذ يبلغ سمكهُ نحو متر ونصف (وقد سبق في الكلام على السدود وانواع نباتاتها والاماكن التي تكثر فيها وذكر ما يقال عن علاقتها بفيضان النيل وتعديله الى ان قال)

وليس للسدود شأن كبير في فيضان النيل بمصر خلافاً لما ذهب اليه البعض لان الفيضان متوقف على نهر السُّبَت والبحر الازرق والاتبرة وليس على البحر الابيض الذي تكثر السدود فيه فان هذه الانهر الثلاثة تجري من اراضٍ جبلية تغزر فيها الامطار فتمدها سريعاً وهي تمدُّ النيل فيفيض واما البحر الابيض فالماء الجاري منهُ يبقى على مقدار واحد لانهُ جارٍ من بحيرات كبيرة . وذلك شأن كبير في ري القطر المصري لانهُ يمكن ان يزيد الماء الجاري منهُ في غير وقت الفيضان وايضاحاً لذلك اقول

ان بطائح البحر الابيض بين شمبا وبحيرة نو كانت بحيرة كبيرة لا تقلُّ مساحتها عن درجة مربعة (اي نحو ٣٦٠٠ ميل مربع وقد قدّر لمبرديني مساحتها وقت الفيضان بمئة الف كيلومتر مربع) ولشدة الحرارة هناك يكثر التبخُّر فيصعد جانب كبير من المياه بخاراً واذا